(٩٦) أبو الفضل بن الحسن[١]

ذكر الشيخ أبي الفضل بن الحسن:

حاملُ الأمانة، عاملُ الديانة؛ العزيزُ بلا زلل، الخطيرُ بلا خلل؛ المُحترق بحبِّ الوطن، الشيخ أبو الفضل بن الحسن رحمة الله عليه.

كان فريدَ الزمان، وبلغ في التقوى والمحبَّةِ والمعنى والفتوة درجةً عالية، وفاق الحدَّ في الكرامة والفِراسة.

وكان ممَّن يُشار إليهم بالبنان في المعارف والحقائق، وكان من أهل سرخس.

وكان الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير مُريدًا له.

ورُوي أنَّ الشيخ أبا سعيد متى ما كان مقبوضًا قال: أسرجوا حصاني لنذهب إلى الحجِّ. فيأتي إلى قبره، ويَطوفُ حتّى يرتفعَ عنه القبضُ.

وقيل: إنَّ أيًّا من مُريدي الشيخ أبي سعيد ممّن كان يفكّرُ بحجِّ التطوّع، كان يُرسله إلى قبر الشيخ أبي الفضل، ويقول: زرْ ذلك القبر، وطفْ حولَه سبعَ مرّاتٍ يحصل مرامُكَ.

ورُوي أنَّ شخصًا سأل الشيخ أبا سعيد قدّس الله سرَّه: من أين أتيت بكلِّ هذا الملك؟ فقال: كنتُ أذهب إلى ضفَّةِ غديرِ ماءٍ، وكان الشيخ أبو الفضل يذهبُ إلى الجانب الآخر، فوقعت عينُهُ عليَّ، ومن هناك جاء كلُّ هذا الملك.

---

(١) هو محمد بن الحسن السرخسي، ترجمته في: أسرار التوحيد «انظر الفهرس»، كشف المحجوب ٣٨٠، ٤١٨، ٤٦١، نفحات الأنس ٤٠٩.

وترجمته في الأصل الفارسي برقم (٩٦) وهي بين ترجمتي أبي سعيد بن أبي الخير والإمام محمد الباقر.

ورُوي عن الشيخ الخرامي[١] أنّه قال: كنتُ طفلاً، فتسلَّقتُ شجرةَ توتٍ، وضربتُ أغصانها وأوراقها، فمرَّ الشيخ أبو الفضل ولم يرني، وعلمتُ أنّه غائبٌ عن نفسه، وكان حاضرًا بالحقِّ بدل ذلك، وبحكم الانبساط رفعَ رأسه، وقال: إلهي، مرَّ أكثرُ من عامٍ ولم تُعطني دانقًا حتى أحلقَ رأسي، أهذا فعلُكَ مع المُحبّين؟ وفي الحال رأيتُ جميعَ أغصان الأشجار وأوراقها صارت ذهبًا. فقال: عجبٌ، أما أقدرُ أن أتكلَّمَ معكَ كلامًا؟

تُرى لو قلتُ كلامًا في حالِ السُّكْرِ لماذا تربطُ بعيرًا بقطارنا[٢]

روي أنّه كانَ في سرخس شابٌّ ولهان لا يُؤدّي الصلاة، فسألوه: لماذا لا تُصلّي؟ قال: وأين الماء؟ فأمسكوا بيده، وأخذوه إلى بئرٍ، وأعطوه الدلو، فظلَّ في يده ثلاثة عشر يومًا بلياليها. فقال الشيخ أبو الفضل: يجبُ وضعه في البيت؛ لأنَّه بعيدٌ من الشرع.

وروي أنَّ الشيخَ لقمان السرخسي رأى في يد أبي الفضل جزءًا من كتاب، فقال: ما تُريدُ من هذا الجزء؟ فقال: عمّا تبحث عنه أنت في تركه. قال: فمن أين هذا الخلاف؟ قال: إنَّ الخلاف في نظرك أن تسألَ منّي ما تريد فيه، قم اخرجْ من السُّكر إلى الصحو حتى يذهبَ الخلافُ؛ لتعلم عمّا نبحثُ أنا وأنت.

ورُوي أنَّ أحدَهم جاء إلى الشيخ أبي الفضل وقال: رأيتُكَ في المنام ميتًا موضوعًا في تابوتٍ، ومحمولاً على الأكتاف. فقال الشيخ: اسكت، فلقد رأيتَ منامَ نفسِك؛ فهؤلاء لا يموتون أبدًا: ألا إنَّ من عاش بالله لا يموت أبدًا.

ورُوي عن الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير أنّه قال: ذهبتُ إلى سرخس،

---

(١) كذا في المطبوع الفارسي، وهو في كشف المحجوب صفحة ٤٦١: الحزامي.

(٢) قطار الإبل هو المجموعة منها التي تسير في إثر بعضها. (المترجم).

أقول: وكأنه يقول: لقد طلبت شيئًا في حال سكري، فإذا بك ـ يا ربِّ ـ تضيف إلى قطار نعمائك لي النعمة التي طلبتها.

فقلت للشيخ أبي الفضل: أتمنّى أن أسمعَ من فمك تفسيرَ قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، فقال: انتظر حتى سدولَ الظلام، فالليلُ ستّارُ السرّ. وحين جنّ عليهم الليل، قال: كنْ قارئًا لأكون مذكِّرًا. قال: فتلوتُ قولَه تعالى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، ففسَّرَها سبع مئة تفسير لم يكن فيها تكرارٌ، ولم يُشبهْ أحدُها الآخر إلى أن طلع الصبح، فقال: ذهب الليل، ونحن لم نتكلّمْ بعدُ عن الحزن والسرور، ولم ينتهِ حديثُنا. فسألته: ما هو السرُّ؟ فقال: أنتَ. قلتُ: وما سرُّ السرِّ؟ قال: أنت أيضًا.

روي أنّه قيل للشيخ: إنَّ المطر لا يهطل، فادعُ لكي يهطلَ. وفي تلك الليلة أمطرت السماءُ بَرَدًا كبارًا، فسئل في اليوم التالي: ماذا فعلتَ؟ فأجاب: أكلتُ عويثةً[1]. أي أنني قطب، وحين أبردُ يبردُ العالم الذي يدور حولي.

ورُوي أنّه طلب إليه: ادعُ لهذا السلطان؛ لعلَّهُ يُصبحُ أفضلَ لتزول المظالم. فأطرق هنيهةً وقال: دعكم من هذا، فأنتم تَرونه الآن بينكم، وتتذكّرون الماضي، وتتحدّثون عن المستقبل، فكونوا أهلَ زمانكم.

وقال: حقيقةُ العبودية أمران: حسنُ الافتقار إلى الله، وهو من أُصول العبودية، وحسنُ الاقتداء برسول الله، وهو أن تكونَ النفسُ فيه لا راحة لها.

ورُوي أنّه لما دنتْ وفاتُهُ قيل له: أندفنُكَ في المقبرة الفلانية؛ فهي مقبرة المشايخ والعظام؟ فقال: اللهَ اللهَ، ومن أكون لتدفنوني إلى جوارِ قومٍ كهؤلاء! ادفنوني فوق ذلك التلِّ حيث دُفن المقامرون والفسّاق، فهم إلى رحمة الله أقرب، وأغلب الماء يُعطى للعطاشى. فرحمة الله عليه.

* * *

(١) في لسان العرب (عَوَثَ): العويثة: قرص يُعالج من البقلة الحمقاء بزيت (المترجم).